

الزّهـد دليل على حكمة المؤمن



الزّهـد من القيم الإسلامية والخلق الإنسانية الرفيعة التي ورد في حقهـ الكثـير من الآيات القرآنية والأحاديث والروايات. يقول سبحـانـهـ وتعـالـىـ: (وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتَغَاءَ مَرْضَاهُ إِلَهٌ وَإِلَهٌ رَءُوفٌ بِالْعِيَادَةِ) (البقرة/207)، ويقول النـبـيـ (صـلـىـ إـلـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـسـلـمـ): «إـذـا رـأـيـتـ العـبـدـ قـدـ أـعـطـيـ صـمـتاـ وـزـهـداـ فـيـ الدـُّنـيـاـ فـاقـرـبـواـ مـنـهـ،ـ فـإـذـهـ يـلـقـيـ الـحـكـمـ»،ـ وـقـدـ قـالـ تـعـالـىـ: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) (البقرة/269) .. ويـقـولـ الإـلـمـامـ عـلـيـهـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ (عـلـيـهـ السـلـامـ): «الـزـهـدـ كـلـهـ بـيـنـ كـلـمـتـيـنـ مـنـ الـقـرـآنـ،ـ قـالـ سـبـحـانـهـ: (لـكـيـلـا تـأـسـوـ اعـلـىـ مـاـ فـاتـكـمـ وـلـا تـفـرـجـوا بـمـاـ آتـاكـمـ) (الـحـدـيدـ/23)ـ.ـ وـمـنـ لـمـ يـأـسـ عـلـىـ الـمـاضـيـ وـلـمـ يـفـرـجـ بـالـأـتـيـ فـقـدـ أـخـذـ الـزـهـدـ بـطـرـفـيـهـ»ـ وـ«الـزـهـدـ فـيـ الدـُّنـيـاـ قـُصـرـ الـأـمـلـ،ـ وـشـكـرـ كـلـ زـعـمـةـ،ـ وـلـوـرـعـ عـنـ كـلـ ماـ حـرـمـ إـلـهـ عـزـ وجـلـ»ـ.ـ وـعـنـ الإـلـمـامـ الصـادـقـ (عـلـيـهـ السـلـامـ):ـ «لـيـسـ الـزـهـدـ فـيـ الدـُّنـيـاـ بـإـضـاعـةـ الـمـالـ وـلـاـ تـحـرـيمـ الـحـالـ،ـ بـلـ الـزـهـدـ فـيـ الدـُّنـيـاـ أـنـ لـاـ تـكـونـ بـمـاـ يـدـكـ أـوـثـقـ مـنـكـ بـمـاـ عـنـدـ إـلـهـ»ـ.

الإسلام حـثـ علىـ الزـهـدـ فـيـ مـتـاعـ الـحـيـاةـ الدـُّنـيـاـ وـرـغـبـ فـيـ لـأـرـهـ تـرـبـيـةـ لـلـإـنـسـانـ عـلـىـ طـرـيقـ السـمـوــ والتـكـاملـ.ـ فـالـتـحـذـيرـ مـنـ حـبـ الدـُّنـيـاـ وـرـدـ حـتـىـ لـاـ يـرـضـيـ بـهـ إـلـيـهاـ وـيـؤـثـرـهـ عـلـىـ الـمـوـقـعـ الـأـسـاسـ،ـ عـلـىـ الـآـخـرـةـ،ـ أـوـ أـنـ يـغـتـرـ بـهـ..ـ فـقـالـ فـيـ ذـلـكـ:ـ (إـنـ الـأـذـنـينـ لـاـ يـرـجـونـ لـقـاءـ زـمـاـ وـرـضـوـا بـالـحـيـاتـ الدـُّنـيـاـ وـأـطـمـأـنـ زـمـاـ وـرـضـوـا بـهـاـ وـالـأـذـنـينـ هـمـ عـنـ آـيـاتـ زـمـاـ غـافـلـوـنـ)ـ (يـونـسـ/7)ـ.ـ وـهـذـاـ الـحـبـ إـنـ كـانـ عـلـىـ هـذـهـ الـصـورـةـ،ـ بـحـيـثـ يـتـحـوـلـ إـلـىـ اـطـمـئـنـانـ للـدـُّنـيـاـ وـاغـتـارـ بـمـاـ فـيـهـ وـتـنـكـرـ لـمـاـ بـعـدـهـاـ،ـ هـوـ خـطـرـ عـلـىـ إـلـيـسـانـ وـهـوـ سـبـبـ شـقـائـهـ وـمـشاـكـلهـ،ـ وـهـوـ وـرـاءـ كـلـ ماـ تـعـانـيـهـ الـبـشـرـيـةـ،ـ وـإـلـىـ ذـلـكـ أـشـارـتـ الـأـحـادـيـثـ:ـ «حـبـ الدـُّنـيـاـ أـصـلـ كـلـ مـعـصـيـةـ،ـ وـأـوـلـ كـلـ ذـنبـ»ـ،ـ «حـبـ الدـُّنـيـاـ يـفـسـدـ الـعـقـلـ وـيـصـمـ القـلـبـ عـنـ سـمـاعـ الـحـكـمـ وـيـوجـبـ أـلـيمـ الـعـقـابـ»ـ،ـ «حـبـ الدـُّنـيـاـ يـوجـبـ الـطـمعـ»ـ،ـ «حـبـ الدـُّنـيـاـ رـأـسـ كـلـ خـطـيـةـ»ـ.

فـالـنـاسـ عـنـدـمـ يـسـتـغـرـقـونـ فـيـ الدـُّنـيـاـ تـفـسـدـ إـنـسـانـيـّـهـمـ،ـ وـيـتـبـاغـضـونـ وـيـتـحـاـسـدـونـ وـيـتـنـازـعـونـ وـيـتـقـاـتـلـونـ مـعـ مـنـ يـبـذـلـونـ الـخـيـراتـ وـيـضـحـونـ مـنـ أـجـلـ الـآـخـرـينـ،ـ وـهـوـ مـاـ يـؤـدـيـ إـلـىـ تـدـمـيرـ الـحـيـاةـ وـتـهـديـمـ

القيم فيها.. فالحياة لا ترتفع بالشهوات أو الأطماع أو بالتكلب على المال والجاه. إنّ جميع الرذائل، والتي تعانىها الحياة، كالأناانية والكذب والغش والظلم والغيبة والفساد وسوء الأمانة والالتهاء بالتكلاثر في الأموال والأولاد، هو نتاج هذا الاستغرار.

نحن نحبّ الدّنيا ونميل إليها، لكنّنا لا نستغرق فيها ولا ندعها تملّكتنا، بل نراها وسيلتنا إلى الله، لنسعى بها على طاعته، وعلى الخير والعمل الصالح، والتزوّد بها ليوم نحتاج فيه إلى هذا الزّاد.. وهذا ما دعا إليه هذا الحديث: «لا تسيّروا الدّنيا ولا تكرهوها، فنعم مطيّة المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر»، و«الدّنيا دار صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها». وورد أيضاً: «اجعلوا لأنفُسكم حظّاً من الدّنيا، بإعطائهما ما تشتهي من الحال، وما لا يثلم المروّة وما لا سرف فيه، واستعينوا بذلك على أمور الدّين، فإنّه رُوي: ليس منّا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه». وقد جاء رجل إلى الإمام الصادق (عليه السلام)، فقال له: وَإِنّمَا لِنَطْلَبُ الدّنَيَا وَنَحْبُّ أَنْ نَؤْتَاهَا، فقال له الإمام (عليه السلام): «تحبّ أن تصنع بها ماذ؟». قال: أَعُودُ بها على نفسي وعِيالي وأصلّ بها وأتَمْدَّقُ بها وأحُجُّ وأعتمرُ. قال (عليه السلام): «ليس هذا طلب الدّنيا، هذا طلب الآخرة». إنّ هذا الفهم لموقع الدّنيا في الحياة، وللمنهج الإسلامي في التعامل معها والالتزام بذلك، سوف يجعلنا من أولئك الذين وعدهم الله تعالى: (فَآتَاهُمْ إِنْ شَوَّابَ الدّنَيَا وَحُسْنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَإِنْ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران/ 148).

الإنسان العابد الزاهد يرى حقائق الكون بمنظار مختلف عن ذلك الفرد المنغمس في حسّه المادي، والفرق بين الاثنين لا يقتصر على إطار الرؤية، بل يتسع ليشمل التفكير والاستنتاج والتقييم والربط. يقول تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ الدَّيْمَلِ وَالذَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِي الْأَلْبَابِ * إِلَّا ذُرُونَ إِنَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُذُوبِهِمْ وَيَتَّفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبُّهُنَّمَا مَا خَلَقَتْ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَ رَبِّكَ) (آل عمران/ 190-191). ويقول (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحبّ إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلة الشيء أحبّ إليه من كثرته». ونختصر هنا الزّهد بكلمة قالها أمير المؤمنين (عليه السلام): «الزّهد تقصير الآمال وإخلاص الأعمال».